اللغة والمجتمع

منذ عرف الإنسان الاجتماع وجد معه اللغة أداة تواصل وتفكير، تمكنه من اكتساب ونقل تجاربه وأفكاره ومعتقداته ومشاعره، وهي أفضل أداة للتفاعل الاجتماعي، وبناء وتبادل العلاقات الاجتماعية، كما تعتبر مؤشرا للانتماء الاجتماعي إلى الجماعة.

وكما يمكن للإنسان أن يعيش حياة اجتماعية بدون لغة؛ تمكنه من التعبير والتواصل مع محيطه؛ لا يمكن تصور وجود لغة دون وجود أفراد ينتمون للمجموعة نفسها، ولهم تجاربهم، ضمن بيئتهم الخاصة، التي يبنون عليها علاقاتهم التواصلية.

الممارسة التعبيرية في المجتمع:

تمثل اللغة جزءا من النظام الثقافي الاجتماعي، وتعتبر أحد أهم الأشكال التعبيرية؛ ضمن هذا النظام، فالفرد يكتسب اللغة من نعومة أظافره في جماعته اللغوية، وضمن تنشئته الاجتماعية، بما يحقق له الانتماء والاندماج، بفعل اكتسابه لأداة التعبير، وللصور الذهنية، وللتفسيرات الاجتماعية للسلوك اللغوي المتفق عليها ضمن الجماعة.. سيتمكن الأفراد المولودون في مجتمع معين من الاندماج في المجموعة وأن يصبحوا أعضاء كاملي العضوية، فكل لغة تسمح لمستخدميها بالتعبير عن كل ما هو ضروري لحياتهم الاجتماعية في بيئة محددة، بل وتمدهم بأشكال مختلفة للتعبير.

والمصطلح الشائع المستخدم للدلالة على جوانب السلوك الذي نستطيع من خلاله التأثير على الآخرين والاستجابة لهم، هو "التعامل الاجتماعي"، وليس الكلام إلا جانبا واحدا من هذا السلوك، ولكنه مرتبط ارتباطا وثيقا بجوانب السلوك الأخرى. ويعد مايكل أرجيل من أهم الباحثين في هذا المجال[..] وقد حدد العناصر الأساسية للتعامل الاجتماعي في عدد من الإشارات المتنوعة منها: الشفاهي وغير الشفاهي والمحسوس والمرئي والمسموع، بالإضافة إلى أنواع مختلفة من الاتصال الجسدي والتجاور واتجاه الجسد ووضعه والمظهر الخارجي وتعبيرات الوجه وحركة الراس واليدين واتجاه النظر وتوقيت الكلام والنبرة العاطفية للكلام والأخطاء الكلامية ونوعية العبارات المنطوقة والبنى اللغوية المستخدمة. ويمكن إعادة تقسيم هذه التصنيفات وإعادة تحليلها لاكتشاف أبعاد جديدة، فكل منها يقوم بدور متميز في التعامل الاجتماعي، بالرغم من تواشج كل هذه العناصر.[1] نلاحظ أن الكلام هو العنصر الأساس في التعامل الاجتماعي، وحتى العناصر الأخرى تأخذ دلالاتها، وتؤدي وظيفتها من خلال قرنها بالكلام، وربطها بالمعرفة المكتسبة عن طريق اللغة ضمن ثقافة المجتمع.

[1] - د.هدسون، علم اللغة الاجتماعي، ت محمود عياد، منشورات عالم الكتب، 1990، ط2، ص191.

ومع تعقد الحياة الاجتماعية، وخاصة في المجتمعات الحديثة، ومع اختلافات الجنس والسن والمهنة والرتبة الاجتماعية، ستقتصر مشاركة الأفراد لغيرهم، من أعضاء جماعتهم في مجالات محدودة، حسب ظروفهم وقدراتهم، المبنية على مقاييس اختلافاتهم المذكورة سابقا، وسيصبحون أكثر دراية بأنواع معينة من النشاط أو المعرفة أكثر من غيرهم. وبالتالي ، تقوم كل مجموعة فرعية من نفس المجتمع بتطوير مفردات ، وأحيانًا، نطق أو قواعد نحوية خاصة بها، لا يشاركها فيها الآخرون من المجتمع اللغوي نفسه.

للأطفال كلامهم الخاص المتداول بينهم، والذي يتخلون عنه بعد مدة، بتقدمهم في السن، فالطفل الذي كان ينادي يسمي أباه "بابا" وأمه "ماما أو أُمًّا" كما في شمال إفريقيا، سيتخلى عن ذلك في سن المراهقة وربما يستعملهما للمناداة في حضورهما وربما استبدلهما بلفظين آخرين، أما في غيابهما فالأكيد أنه لا يذكرهما ب"بابا وأُمًّا" وكثيرا ما تستعمل عند بعض الشباب لفظتا "الشايب والعجوز أو الحاج والحاجة" تأدبا وهناك من أصبح يقول "الوالد والوالدة"، وللشباب لغتهم الخاصة وفي كل المجتمعات، وكثيرا ما يلجؤون إلى استحداث صيغ جديدة في اللغة، كما أن للكهول والشيوخ ألفاظهم الخاصة، التي يستعملونها في أحاديثهم، وهم أميل للمحافظة على ألفاظهم المتوارثة والمتداولة، وعندما تصبح بعض الفئات في دور المتلقي، فإن الملقي يستعمل الخطاب الخاص بالمتلقي، كمخاطبة الأطفال الصغار بألفاظ خاصة من طرف الكبار، "ولو نظرنا من زاوية المتلقي، لوجدنا أن هناك طرقا كثيرة قد تختلف بها طريقة المتحدث في الكلام، ويعتمد ذلك، في المقام الأول، على نوعية المتلقي. ويبدو أن جميع اللغات تتضمن وحدات لغوية معينة، لا تستخدم إلا عند توجيه الحديث إلى الأطفال"[1] ولا تعني خصوصية القاموس لكل فئة عمرية عدم انتمائه، لكلام الجماعة أو أنه غير مفهوم من الفئات العمرية الأخرى، بل يحدث التمايز على مستوى الاستعمال فقط، لأن الأداة واحدة وهي النظام اللغوي السائد في المجتمع.

ومن ناحية أخرى، هناك اختلافات في التعبير، بين الجنسين، وفي مواقف لغوية واجتماعية مختلفة، حيث هناك كلام ذكوري وهناك كلام أنثوي، ناهيك عن القواعد النحوية وصيغ التأنيث والتذكير، هناك الفاظ ممنوعة عن النساء، والتي تستعملها قد تُوسَم بوسم معين، كأن يقال عنها أنها لم تتلق تربية لائقة مثلا، وهناك مواقف اجتماعية، يحرم على المرأة أن تعبر عنها في بعض المجتمعات، وهناك ألفاظ خاصة تستعمل فقط من طرف النساء، ولا يجوز استعمالها من طرف الذكور، ناهيك عن نبرات الصوت، وطريقة نطق بعض الصيغ، التي تختلف بين الجنسين.

وللوظائف والمهن والحرف تأثيرها على الكلام، فمن الطبيعي أن يؤثر التأهيل المهني على تكوين الشخص اللغوي، من خلال تأثيره على معرفته وخبرته، التي لا يمتلكها غيره من أصحاب المهن والحرف الأخرى، ولا يمتلك هو خبرة ومعرفة الآخرين، فالمخزون اللغوي من ألفاظ التخصص يملكه صاحب

[1]- المرجع نفسه، ص 170.

الاختصاص وحده، رغم عدم خروجه عن النظام اللغوي السائد ضمن الجماعة اللغوية، مما يسهل عملية التواصل الجماعات الفرعية ضمن الجماعة اللغوية الرئيسة.

وللعرق تأثيره على اللغة اختيارا وصيغا ونبرة ونطقا، والدراسات في الولايات المتحدة مثلا أثبتت أن أنجليزية السود غير أنجليزية البيض، وحتى المجموعات السوداء تختلف فيما بينها، لعوامل عديدة، والحال نفسه بالنسبة للمهاجرين العرب كذلك. وللرتبة والوضع الاجتماعيين تأثير على استعمال اللغة، وتبعا لذلك كانت اللغة كذلك مستويات تمثل طريقة التحدث (بين لغة عليا ولغة دنيا) "في نفس الوقت ، هناك عدة مستويات من اللغة، ويتم تعريف المستوى بأنه طريقة للتحدث تظهر نوعًا معينًا من العلاقات الاجتماعية (من أعلى إلى أدنى .. إلخ.) بالإضافة إلى المشاعر المصاحبة لهذه العلاقة: الاحترام ، الازدراء ، الكراهية ، إلخ... وهكذا يمكن للمرء ، مثل الملوك أو الأمراء ، استخدام لغة مهيبة والتحدث عن نفسه بصيغة الجمع. ويلاحظ أن كلمة "نحن" هذه يمكن استخدامها أيضًا من خلال أوضاع التعادل: مؤلف مقال أو كتاب سيقول بشكل عام "نعتقد أن ..." بدلاً من "أعتقد أن ... " من ناحية أخرى ، اعتمادًا على الترتيب الاجتماعي للشخص الذي نتوجه إليه (أعلى ، أو متساوٍ ، أو أقل)، فإننا نميل إلى اختيار مصطلحات أكثر أو أقل تمييزًا للاحترام، تحتوي القواعد في بعض الأحيان على ما يؤدي هذا الغرض."[1] كما يعتبر استعمال لغة ما مؤهلا اجتماعيا، حسب ثقافة الجماعة وظروفها التاريخية، وبنية السلطة فيها، ومدى ارتباطها بجماعات لغوية مهيمنة، داخلية أو خارجية، وفي هذا المجال أجريت دراسة في مصر وكان من نتائجها: "المتحدثون باللغة العربية الكلاسيكية والإنجليزية المصرية يرون أنهم يمتلكون مقدرة قيادية عالية وذكاء أشد من متحدثي اللغة بالعربية العامية، وتعتبر طريقة كلامهم الأكثر ملاءمة للاستخدام في الراديو والتلفزيون وفي الخطب الرسمية والدينية. إن اللغة العربية الكلاسيكية هي أكثر ملاءمة للاستخدام في الحالتين عما هو الحال بالنسبة للغة الإنجليزية المصرية، ولكن ليس هناك فرق دلالي بين اللغتين بالنسبة للذكاء والقدرة القيادية. ويعتبر الذين يتكلمون العربية الكلاسيكية أكثر تدينا من الذين يتكلمون أحد الضربين اللغويين الآخرين، وتعتبر العربية الكلاسيكية أكثر ملاءمة للاستخدام في المدرسة. أما بالنسبة للبيت فإن العربية الدارجة هي الأكثر ملاءمة إلى حد كبير، واعتبرت العربية الكلاسيكية هي الأقل ملاءمة لهذا المجال."[2]

اللغة هوية اجتماعية:

ومن ناحية أخرى فاللغة انتماء وهوية للأفراد والمجتمعات، وتأخذ في كثير من الأحيان بعدا مهما في إيديولوجية الأمة، فتثبت في الدساتير كلغة وطنية ورسمية، وهناك بعض الدول تحتوي دساتيرها أكثر من

[1] Louis-Jacques Dorais :L'anthropologie du langage,p : 30 .

[2]- رالف فاسولد علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ت إبراهيم بن صالح محمد الغلاي، النشر العلمي والمطابع – جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1421هـ، 2000م، ص 294.

لغة واحدة، بناء على التعدد اللغوي الموجود في المجتمع، إذ تفرض كل مجموعة لغوية الاعتراف بلغتها، باعتبارها جزءا من وجودها، ولطالما كانت اللغة مطلبا ثوريا في أدبيات الحركات المناهضة للاستعمار أو الحركات الاستقلالية والانفصالية، التي لا تجد أنها متجانسة مع المجتمع الذي تعيش فيه، وترى أنها تعاني من الهيمنة والقمع.

وعلى مستوى الدولة دائما يتم السعي في العادة إلى تبني لغة رسمية تكون مهيمنة ومسيطرة بمرور الزمن وبفعل القوانين السائدة والوضعيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تعطي الأولية لهذه اللغة دون غيرها لأن تكون فاعلة، مما يؤهلها للهيمنة على بقية اللغات الموجودة في المجتمع والدولة. فاللغة العربية الفصحى المسيطرة اليوم؛ هي في الأصل لغة أهل مكة، واللغة الفرنسية الحالية هي لغة سكان باريس وضواحيها، وفي الصين توجد أكثر من 800 لغة ولهجة تعاني التهميش لصالح اللغة الرسمية،[1] هذا ما يدفع الكثير من المجموعات البشرية ذات اللغة المخالفة للغة السائدة إلى تبني إيديولوجيا انفصالية قصد تحقيق هويتها سياسيا على أرض الواقع، كما يحدث مع الأكراد في المشرق، أو المطالبة بالاعتراف كما يحدث مع الأمازيغ في المغرب، حيث حازت اللغة الأمازيغية اعترافات بالحق في الوجود كلغة وظيفية في المجتمع، وكلغة وطنية ورسمية كما في الجزائر. وبالتالي فاللغة تشكل أحد العناصر المهمة لتشكيل هوية الجماعة والدولة والأمة، وربما مثلت أهم وأبرز مظهر ثقافي اجتماعي لتمييز هوية الأفراد والجماعات.

وتقوم اللغة ضمن الجماعة اللغوية بوظيفة التوحيد والتضامن وكذلك التفريق، و"إن الموقف المعتاد هو أن اللغة العليا تعتبر أنقى وأفضل من اللغة الدنيا، في المجتمع الذي يحتوي ضروبا لغوية مختلفة تدخل في علاقة ازدواجية اللغة. وبالطبع، فإن تحقيق وظائف التوحيد والتفريق يتم على الأغلب عن طريق اللغة الدنيا"[2]، وتأخذ اللغة العليا مرتبة التبجيل والمحبة والاحترام، من مختلف الجماعات اللغوية الفرعية غالبا، وفي كل مجتمع هناك تعددية لغوية بشكل ما، وقد تكون هذه التعددية عبارة عن لغات مختلفة، كما في سويسرا أو بلجيكا، والهند، وشمال إفريقيا، أو يكون التعدد لهجيا، أي وجود لهجات مختلفة في لغة واحدة كما في اللغة العربية، في الدول الناطقة بها، وتصبح اللغة في الحالات العادية عامل توحيد وتضامن بين الناطقين بها، لكنها لا تضمن دائما هذا التضامن ولا تمنع الفرقة والصراع دائما بين الناطقين باللغة الواحدة، إذا ما تدخلت عوامل أخرى، كعامل الطائفية مثلا في لبنان والعراق، كما أن اللغة قد تصبح في حد ذاتها عامل تفريق، في الجماعة اللغوية الواحدة، من خلال تشبث الجماعات الفرعية بلهجاتها، ويصبح الاستعمال اللغوي للهجة عامل تمييز انتمائي للجماعات الفرعية، وكثيرا ما يلجأ أفراد الأقليات من تحوير وتغيير في استعمال النظام اللغوي لصالح لهجة أو لغة الفئة المهيمنة.

[1] Louis-Jacques Dorais :Ipid,p :08 .

[2]- :رالف فاسولد، المرجع السابق، ص 276